دور الأقلية الأوروبية في مظاهرات ديسمبر 1960

د. محمد داعي

جامعة الدكتور مولاي الطاهر/ سعيدة

الملخص:

تميزت الأقلية الأوروبية بالغلو والتعالي منذ دخولها ارض الجزائر زاد تطرفهم مع كل إصلاح شكلي تبنته حكوماتهم. اندلعت ثورة التحرير التي أجبرت قادتهم مراجعة مواقفهم التي أصبحت تتعارض مع متطرفي الكولون وحتى بعض قادة الجيش لذالك ومع مشاريع ديغول المناوراتية منها الجزائر جزائرية والتي أراد الترويج لها بزيارته للجزائر رفضها الكولون من معارضة ديسمبر 1960 سعوا لتحويل أهدافها اتجاه رغباتهم الجزائر الفرنسية فاصطدموا مع الشعب الجزائري الذي وقف لهم بالمرصاد بمناداته لاستقلال الجزائر وانعتاق الأمة فكانت بمثابة جرعة أوكسجين للثورة وانتصارا سياسيا في هيئة الأمم المتحدة .

Abstract :

The european kinority has been characterized by arrogance since its entry into band of algeria which increased their extremism with every form of reform adopted by their governments.The revolution of liberation forced their leaders to revieu their positions which incompatible with the colonists and even some army leaders and with the degaulle maneuvering projects including algeria algeria whith he wanted to promote by visiting algeria which has rejected by the colonel but the opposition of the visit in december1960 sought to turn its objectives towards their wishes with the algerian people who stood for them by the bookout of his hand cuffs it was a lethal dose of revolution and a political victory in the united nation body

الكلمات المفتاحية : الكولون / التطرف/ مظاهرة ديسمبر 1960/ أهدافها/ انعكاساتها.

مع فشل أسبوع المتاريس وخطاب الجنرال ديغول بتاريخ 29 جانفي 1960 والذي أراد من خلاله إزالة أسباب التوتر خاصة مع الجيش، فيها من التنازلات التي من شأنها تضييق مجال سياسة تقرير المصير، تقريبها بالمعنى الذي يفهمه ويرغبه الجيش بتعهده في استمرار التهدئة إلى أن يتحقق انهزام الثورة الجزائرية[1].

لكن المستوطنين زاد حقدهم ورغبتهم في الانتقام وهو ما تبينه الكتابات الحائطية التي تركها جنود اللفيف الأجنبي بمركز زرالدة "سنعود ،الجزائر فرنسية لم تمت": "المتطرفون استغلوا هذا التوتر للمزيد من تعفين الجو عن طريق إضرام النار في البنايات الرسمية، بما في ذلك القتل لمن رأوا في الخيانة، إلى جانب شنهم إضرابات استعدادا لساعة التضحية" [2]. ذلك الذي ترك الجنرال ديغول أن يتخذ إجراءات تمتص غضب قادة الجيش ومن أجل ابعاده عن ميله نحو المستوطنين [3]، ومطمئنا بتصريحاته قيادات الجيش ومن ورائهم الأقلية الأوروبية قوله: "ذلك انني قلت بالطبع لهؤلاء الجنود... إن النضال لم ينته بعد و أنه مازال مستمرا ويجب البحث عن الخصم والتغلب عليه والحاق الهزيمة به"[4].

وهو ما يستخلص أنه حاول التوفيق بين سياسته الجزائرية والجيش الفرنسي الذي يحاول الانفصال والتمرد عنه [5]، لذلك سعى لإبعاده عن ما سيتخذه من قرارات قد تدفعه الميل نحو المستوطنين، ذلك الذي يوضحه عن طريق اتخاذ إجراء هام وهو نزع السلطات المخولة للجيش لتحل محلها الشرطة. إذ أصبحت بداية من 4 فيفري 1960 خاضعة للولاة والمندوب العام في الجزائر لأن ديغول لم يعد يثق بقادة الجيش بسبب تعاونهم المستمر مع الأوروبيين ،ومن خلال ما وقف عليه لتورط قادة الجيش في أحداث 24 جانفي 1960 وانغماسهم في القضايا السياسية ،ذلك ما جعله يقرر بتاريخ 20 مارس 1960 بتحويل الجنرال "شارل موريس" لقيادة القوات الفرنسية وسط أوربا[6].

و بتاريخ 23 أفريل 1960 عين الجنرال "كريبان Crepin " محل الجنرال "جاك ماسو" قائدا جديدا للجيش في شمال إفريقيا[7]، تتبعها قائد الجيوش الفرنسية " بيار مسمار" وبأمر من الجنرال ديغول يحل الوحدات الإقليمية التي كانت في مقدمة التمرد، ومصدر القتل إلى جانب عزل مع تحويل بعض الضباط الذين كان لهم ضلوع في العصيان من بينهم "غارد، بروازا، أرغودا، غودار... " [8]بما في ذلك حل الجبهة الوطنية للطلبة الفرنسية وكل الحركات النشطة تحت لوائها [9]، منها الحركة الشعبية، الحركة الوطنية للطلبة ولجنة الوفاق لقدماء المحاربين[10].

وأمام هذا التواطؤ المفضوح لجهاز الشرطة عوض هو الآخر بعدد كبير من عناصرها بما في ذلك المكتب الخامس وجميع الفروع التابعة له بعدما أضحى إلى مركز لتدبير المؤامرات [11]، ومن يومها أصبح وبشكل جلي أن الكثير من قادة الجيوش المتواجدين بالجزائر يعارضون سياسة الأمر الذي كان له تأثير على بقية إطارات الجيش وجنوده [12] ورغم ذلك فإنه يحاول وبمناورته أن يكسب الأقلية الأوروبية بمهاجمته لجبهة التحرير الوطني وقادتها السياسيين بتصاريح نارية منها ذلك الذي أدلى به للصحفي بيار لافون بتاريخ 25 نوفمبر 1960 وعلى إثر سؤال أدرجه إياه مضمونه: ما تريده جبهة التحرير الوطني؟ فيجيبه ديغول قائلا: "ماذا يريد هؤلاء الناس؟ هل يتصورون أن بإمكانهم حقا أن يسيرو بمفردهم

الجزائر،إن فرحات عباس عاجز عن ذلك ،هل يتصورون أن المليون فرنسي يقبلون بذلك دون أن يحركوا ساكنا؟ سيكون هناك حمام دم ،أم لعله يتصور أن منظمة الأمم المتحدة تستطيع أن تقر النظام...؟ لكن الصحفي أثاره وبسؤال يندرج مما أقره في مشروع الاستفتاء إذا اختار الجزائريون الاستقلال ، ينفجر ساخطا: " لا تتكلم عن الإستقلال يقال أن "فولبيريو" مستقل لكني أن الذي أدفع له مرتبه، فهو غير مستقل في نظري" [13]. وعلى الرغم مما كان يقدم من دعم للمستوطنين إلا أنهم شعروا بانهيار أسطورة الجزائر الجزائر الفرنسية كما أحس العسكريون بتراجع نفوذهم لسلطة المدنيين في الحكومة العامة وعلى رأسها "بول دوليفي"[14].

وموازاة مع ذلك وبداية من شهر ماي 1960 تحرك نحو تجسيد سياسة تقرير المصير بإجراء اتصالات سرية وعلنية مع الثوار الجزائريين مراوغا ضاغطا على الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية ،حتى تقبل بشروطه وإلا تفاوض مع رجال الثورة ، وفعلا التقى بتاريخ 10 جوان 1960 بقادة الولاية الرابعة للتباحث معهم في مسألة تقرير المصير [15]، نتيجتها انتهت إلى إزاحة قائد الولاية الرابعة "سي صالح" . اضطر الجنرال ديغول يوم 14 جوان 1960 بتوجيه خطاب يدعو فيه إلى التفاوض قائلا : "أتوجه إلى قادة الثورة وأعلن بأننا في انتظارهم لإيجاد الحل المرضي للصراع الدائر"[16].

وفعلا انطلقت المفاوضات بتاريخ 25 جوان 1960 وهو ما اعتبر انتصار للثورة الجزائرية ،إلا أن الأوروبيين اعتبروه خيانة ومبادرة لتخلي عنهم والتنازل عن الجزائر وعليه فبداية من 14 جوان 1960 بدأ المستوطنون في تعاون مع قادة الجيش قصد إزاحة ديغول من الحكم أو منعه من التفاوض ،إذ أقدموا بعد يومين من خطابه للتفاوض على إنشاء منظمة تعمل على إبقاء الجزائر الفرنسية أطلق عليها "جبهة الجزائر الفرنسية " احتضنتها أكثر من مائة ألف مستوطن [17]، وما جعلهم أكثر تعلقا بفكرة الجزائر الفرنسية تصريح الجنرال "راؤول صالان " ومن اسبانيا: "إذ قرر فرنسيو الجزائر القتال من أجل الجزائر التي هي مسقط رأسهم فإني سأذهب هناك ،لأقاتل إلى جانبهم" [18]. و ما زاد تهييجهم انتقاله بتاريخ 14 سبتمبر 1960 للجزائر وإعلانه أنه لا يحق لأي سلطة أن تقرر مصير أية أراضي تحت سيادة فرنسا" [19] ، بما في ذلك بروز منظمات يسارية أشرفت على مظاهرات مناهضة للوضع السائد كالبيان 121 شخصية وعلى رأسهم "جون بول سارتر" الصادر في 5 سبتمبر 1960 المحرض بعدم تلبية الشباب لتأدية إلزامية الخدمة العسكرية بالجزائر[20].

تبعته الأقلية الأوربية بتنظيم مظاهرات عنيفة وشديدة اللهجة بتاريخ 03 اكتوبر 1960 حملوا فيها شعارات عنصرية ضد الموقعين على البيان ،شاركت فيها جمعيات ومنظمات سياسية خاصة أعضاء الجيش المتقاعدين ،انطلاقا من ساحة قوس النصر بباريس احتجاجا على الذين تمردوا وأعلنوا عصيانهم على النظام الفرنسي وساندوا الشعب الجزائري في تقرير مصيره منادين بأصوات مختلفة [21]، شتما لكل الممضين خاصة "ج ان بول سارتو" مصرحين عاليا :"أعدموا جون بول سارتر ،الجزائر الفرنسية ،حرروا الزعماء ،سالان في السلطة"[22].

ومما فتح المجال لدى الأقلية الأوروبية طرح الجنرال ديغول لأمر الاستفتاء الذي انتهى باستقالة "جاك سوستيل" وأبدى المتمردون معارضتهم له في كل مكان إذ اجتمعوا في الجزائر ضمن إطار "جبهة الجزائر الفرنسية" التي تجاوب معها الكثير منهم [23]. وما زاد تأزما للوضع هو عدم تمكن الجنرال شال ومن خلال عملياته الحد من هجومات جيش التحرير [24]والتي جعلت ميزانية فرنسا الاستعمارية غير قادرة على مسايرة هذه النفقات ،ذلك الذي دفع الجنرال ديغول يصرح معترفا قوله :"إن فرنسا تصرف ألف مليار سنويا في الجزائر هذا عدا الخسائر البشرية" [25] . و ما يبين فشله بإفصاحه ضمنيا أثناء زيارته لمعاقل الجيش عبر التراب الوطني قوله: "إن أقل ما يمكننا قوله هو أن الجزائر تكلفنا أكثر بكثير مما نربح منها...إن هذه الدولة ستتمتع بسيادتها داخليا وخارجيا وليست النتائج العكسية التي حصلت جبهة التحرير الوطني عليها هي التي أملت على ما قلته" [26]. ويتجلى أكثر وضوحا في الحوار الذي أجراه مع الصحفي ونائب مقاطعة وهران (بيار لافون) قوله: "نستطيع مواصلة الحرب وقد قتلنا مائتي الف وسنقتل خمسمائة أسبوعيا ،لكن إلى أين نسير؟ الجيش الذي يرى أبعد من الجبل لايريد أن يحرم من انتصاره... ولكن ماذا يفيدنا هدا إذا نجحوا؟ ، أن نعيد ذلك في خمس سنوات في عشرة، المسلمون سيكونون أكثر عددا من اليوم، الجيش لم يفهم أبدا السياسة ....يضيف إلى أين نسير؟ إلى فقدان ما نملكه في الجزائر ويسخر منا العالم"[27].

ورغم أن الثورة الجزائرية ويدها الضاربة ،جيش التحرير الوطني ،لم تزعم أن تحقق انتصارا عسكريا مشابها لـ"ديان بيان فو" لكن الشيء المؤكد أنه تمكن من الحد وتحجيم عمليات الجنرال "شال" وإفشالها عن طريق استراتيجية الانتشار والمناوشة والعمل الفدائي في المدن ،وبهذه الطريقة تمكن من تثبيت الجيش الفرنسي عبر التراب الوطني [28] ،تطبيقا لمخطط حرب العصابات الأساسية التي نظر لها "ماوتسي تونغ" مدرسة فكر الحروب الثورية وأحد قادتها في الصين الشعبية حيث يقول: "إذ تقدم العدو ننسحب ،إذ خيم نضايقه ،وإذا جلا نطارده"[29].

و في ظل هذه الأحداث المتسارعة سعى الجنرال ديغول لتغليب الحل العسكري بواسطة عمليات عدة "الشرارة في الحضنة ،الأحجار الكريمة في القبائل الصغرى ،جومال في القبائل الكبرى...إلى جانب ذلك أخذ له عدة مبادرات سياسة خطاب حول تقرير المصير الذي أعلنه في سبتمبر 1959 ،نداءه من أجل وقف إطلاق النار ،مناوراته السياسية سلم الشجعان جوان 1960 ،محاولة لقاء مولان والجزائر جزائرية ،كلها خطوات أغضبت الأقلية الأوروبية والتي شددت على معارضة سياسته [30]. خاصة وأنهم قد تعودوا على تطويع الحكومة الفرنسية حسب مشيئتهم [31]في الكثير من القضايا وخاصة تلك الإصلاحات التي تبنتها الحكومات الفرنسية إلى غاية نجاحهم في انقلاب 13 ماي 1958 ،ولكنه وابتداء من تمرد جانفي الذي انتهى بخيبة أملهم ،إذ اعتبروه سابقة خطيرة ونكسة عاشتها الأقلية الأوروبية مع الحكومة الفرنسية ،على إثر اقتتال أدى إلى سقوط عدة ضحايا وهو ما مس من معنوياتهم [32] ،فجعل فرحات عباس يصل في تحليله إلى حتمية نهاية هذه الأقلية قوله: "سيتدرجون دون شعور منهم صوب الهاوية"[33]. وانطلاقا من خطاب الجنرال ديغول الذي ألقاه بتاريخ 4 نوفمبر 1960 والذي أثار ضجة كبرى في الوسط الفرنسي وخصوصا المستوطنين جاء فيه : "إنني قررت طريقا جديدا لفرنسا ...هذا الطريق يوصل ليس إلى الجزائر يحكمها الوطن الأم فرنسا ،لكن إلى جزائر جزائرية ،وهذا يعني جزائر حرة ،جزائر يقرر سكانها

مصيرهم بأنفسهم... هذه الجزائر يمكن بنائها مع فرنسا أو من دونها... و إذا كان لابد من قطيعة عدائية فإننا لن نلح على البقاء إلى جانب الناس يرفضوننا" [34]. خطاب كانت له ردود فعل عنيفة من الأوساط اليمينية المتطرفة ومنها حتى القادة العسكريون وعلى رأسهم الماريشال "جوان" الذي رفض فكرة التخلي تلاه الجنرال "سالان" والذي عبر عن "لا للجزائر جزائرية" داعيا للمستوطنين تحمل مسؤولياتهم [35]، كما ردت جبهة الجزائر الفرنسية باسم أوربي الجزائر بمعارضتها لتأسيس جمهورية جزائرية ،ومن وهران ردت منظمة قدماء المحاربين على لسان رئيسها "روبيل مارتل" الذي أصيب في عينيه أثناء الحرب ،فبعث بتلغراف للجنرال ديغول قائلا: "باسم كل من فقدوا بصرهم بسبب الحرب في وهران ،أريد أن أقول بأننا فقدنا بصرنا من أجل الجزائر الفرنسية ومن أجل فرنسا وليس من أجل ميلاد الجزائر الجزائرية"[36].

كما كثرت المشاداة بين المستوطنين وقوات الأمن ،مع ظهور مناشير عادية للحكومة الفرنسية حتى أصبح المندوب العام "بول ديلوفري" فاقد السيطرة على الأوضاع مما أجبره على تقديم استقالته والذي تم تعويضه بتاريخ 23 نوفمبر 1960 بالسيد جون موران (Jean Morin) [37] وفعلا بدأ هذا الأخير في شرح مخططات ومشاريع الجنرال ديغول تحضيرا وتهيئة للرأي العام الفرنسي وتحضيرا لزيارته للجزائر[38]، وهو الذي كان مطمئنا من الجيش الذي لن يتمرد عليه حيث كان يتصور أن فئات الموظفين الجزائريين ستمكنه من تشكيل قوة ثالثة سياسية تعتمد عليها فرنسا في مواجهة جبهة التحرير الوطني ،إلى جانب مشروعه الجزائر جزائرية ستمكنه من شعبية داخل الجزائر يستطيع بها أن يفرض على أوروبي الجزائر ،وفي نفس الوقت يستعمل فيه الجمهور الفرنسي بالجزائر للحد ما أمكن من الطموح إلى الاستقلال ولدفع الجزائريين نحو القبول بالمضمون المحدود للاستقلال الذاتي [39]. وفي ظل ضغط من بعض قيادات الجيش الموالية للأقلية الأوروبية راجع موقفه من جبهة التحرير بل حتى المجموعة الدولية المساندة لحق تقرير المصير يلجئوه إلى القوة العسكرية وذلك بتفجير أول قنبلة نووية بتاريخ 13 ماي 1960 ،مشددا لهجته بتصريح ألقاه بتاريخ 5 مارس 1960 نفيه لمناقشته وحواره مع جبهة التحرير الوطني حتى أنه أمر و دفع بالجيش لمواصلة الحرب حتى الإنتهاء من تصفية التمرد[40].

وفي ظل هذا الاجو اء المشحونة قرر الجنرال ديغول القيام بزيارة خاصة عبر مناطق عدة من الجزائر للإطلاع بنفسه على الواقع بما في ذلك معرفة رأي الشعب الجزائري حول تقرير المصير إلى جانب الاطلاع على رد فعل المستوطنين بالجزائر [41]. الذين لجئوا إلى مظاهرات واسعة سبقت الزيارة يوم 11 نوفمبر 1960 احتجاجا على إثارة الجنرال ديغول في خطابه 4 نوفمبر 1960 إجراء استفتاء ،الأمر الذي زاد في هيجانهم بحيث اعتبرته الأقلية الأوروبية بداية تشكيل حكومة جزائرية ،وأن سياسة ديغولهيئة الظروف لتسليم الحكم للحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائرية [42]. و مما ساعدهم على ذلك الصحف اليمينية التي روجت صورة الجنرال ديغول خائن الأمانة لأولئك الذين أخرجوه من ظلمات النسيان ومكنوه من التصرف في مصيرهم [43]. فأصبح حديث الأقلية الاوروبية في أوساط المتطرفين عنيفا ضد شخص الجنرال ديغول و زيارته للجزائر، و من بين ما جاء في أحاديثهم قولهم :" كيف يجرؤ هذا الخائن وهذا الوغد على المجيء ليتحدانا في بيتنا ...سيرى أي استقبال سننظمه له" [44]، في حين رابطين صفة الوفاء للخونة و القومية منهم [45]"الباشاغا بوعلام" الذي اعتبر من المسلمين المتعاونين الأوفياء[46].

لقد رغب الجنرال ديغول و عزم على التخلص نهائيا من "الجزائر الفرنسية" و الإعلان عن الجزائر الجزائرية و لهذا تعليماته بأن تترك الحرية في هذه المظاهرات لصالح الجزائر الجزائرية [47]. كما أنه سعى وعبر خطاباته التي أرادها أن تصب في محاولة الدفع بالطرفين لقبول بعضهما البعض، و تكون فرنسا من ورائهم قد نجحت في توطيد معالم أخرى للهيمنة، قوله من عين تموشنت:" بين فرنسا الجديدة و هذا الجزائر الجديدة سيتم إبرام عقد جديد، حقا إنكما تنحدرون من أصلين جد مختلفين الواحد عن الآخر، و مع ذلك أنتم جميعا جزائريون و تحبون جميعا الجزائر، عليكم أن تتعاونوا من أجل بنائها معا...عليكم بناء جزائر الأخوة التي يجب أن تصنع بتعاون كل الطوائف[48].

و لكن الاوربيين و الذين كانه عددهم يفوق تسع آلاف بعين تموشنت يعدون من كبار الكولون، استقبلوه بهتافات و شعارات" يسقط ديغول، الجزائر الفرنسية، يسقط العرب"[49]، و هو الذي شهد بذلك قوله:" منذ وصولي في 9 ديسمبر إلى عين تموشنت في منطقة وهران لاحظت الموقف العدائي الذي اتخذه كثير من الفرنسيين الأصليين، و ببجاية جرت حول دار المحافظة حيث سأقضي ليلتي اشتباكات عنيفة بين الطائفتين"[50]. و بعدها من تلمسان متحدثا مروجا لفكرة الإخاء :"أيها الجزائريون عليكم أن تبنوا الجزائر"[51]. ورغم قلتهم لكنهم خرجوا في الساحة الكبرى في اتجاه البلدية منادين بسقوط ديغول والصحراء فرنسية، و تقسيم الجزائر. و بنفس الشعارات من مدينة شرشال و الشلف التي انتهت فيها باكتشاف مؤامرة اغتياله [52]، على أنه ركز و بقوة في نفس المسعى من تيزي وزوو قائلاً :"إنني مقتنع بأنه سيأتي يوم تتصافح فيه الأيدي فالجزائر الجديدة هي للجزائريين و لمختلف الجماعات التي تتشكل منها"[53]. و في ظل الاحتياجات الأوروبيين المطالبين بالجزائر فرنسية، لا لتقرير المصير، لا لتسليم الجزائر للفلاقة، يسقط ديغول "[54]. قابلها الجنرال ديغول بخطابات أراد منها جس نبض الجزائريين و محاولة تفجير قوة من بينهم، تسنده في مواجهة كل من الأوروبيين وجبهة التحرير الوطني، كما أنه تجنب في رحلته هذه المرور بكبريات المدن التي توجد بها أعداد غفيرة من الأوروبيين كالعاصمة و وهران، و التي يخشى من متطرفيها استعمالها لإحباط مشروعة [55]. و فعلا لقد وجهت جبهة الجزائر الفرنسية نداء تحريضيا ضد زيارته بتاريخ 8 ديسمبر 1960 جاء فيه:" يا فرنسيي الجزائر، مسلمين و غير مسلمين، لقد حان الوقت لكي نؤكد تصميمنا الجبار على أن نبقى فرنسيين، لقد آن الأوان لأن ننهض في وجه سياسة التخلي، و يجب أن نعبر عن إرادتنا هذه بالإضراب العام الذي سوف نشنه في وجه ديغول"[56].

إضراب عام لمدة أربعة وعشرين ساعة تزامن ووصوله للجهة الغربية، وزعت آلاف المناشير بمدينة الجزائر و التي كان مضمونها:" يجب أن تتوقف الحياة في مدينة الجزائر، حركة السيارات بالمدينة ممنوعة إلى جانب عدم فتح المحلات التجارية و إلا تعرضت للتخريب" [57]. جوٌ عبر عنه الجنرال ديغول بنفسه قائلاً :" كانت زياراتي مشبوهة بالإضراب، حيث أعلنت جبهة الجزائر الفرنسية إضراب عام مع إغلاق المخازن في كل من مدينتي الجزائر و وهران رغم أنني كنت كقرراً عدم زيارتهما"[58].

و بذلك تقرر صبيحة 9 ديسمبر 1960 اليوم الأول من الزيارة، تظاهر الأوربيين وسط مدينة الجزائر تعبيراً عن غضبهم و عدم قبولهم للزيارة بمضمون ما فيها من اقتراحات تتعارض ووجودهم[59]. سيطر فيها الأوربيين و بإيعاز من "جمعية شباب الأمة" على المنافذ الحساسة لأحياء باب الوادي الأكثر

عدداً بهم، بما في ذلك ملتقى الطرق و وسط المدينة حتى حي بلكور [60]، في هذا الحي شلت الحركة ببقر عجلات السيارات، و عند الساعة العاشرة وقعت صدامات، تعالت منبهات السيارات و صيحات "الجزائر الفرنسية، لاغايارد إلى جانبنا، الجيش معنا" مشاداة تلتها اعتقالات خلقت جوا من التمرد، و ما زاد في غضبهم و استيائهم صبر ولامبالاة الجزائريين [61]. تحركهم كان شبيها بحركة ماي 1958، هدفهم كان تمهيداً لانقلاب سياسي، و ربما في الحكم، اعتماداً على بعض رؤوس الجيش الفرنسي و التي طالما تحركت لدعم جماهير الأوروبيين معاً محاولة إثارة الجزائريين ضد الجنرال ديغول حتى يتراجع و بدفعهم بقوة على أن يضربوا تضامناً معهم[62]، حيث أنهم ضغطوا على التجار الجزائريين و حاولوا إجبارهم و بقوة السلاح على غلق متاجرهم و مشاركتهم في المظاهرات التي تعبر عن رغبتهم و أهدافهم[63].

تلك الأهداف التي شعاراتها واضحة بمدينة عين تموشنت و مع خطوته الأولى و التي كانت برفقة وزير الشؤون الخارجية " لويس جوكس" إلى جانب المحافظ الجديد " جان سوران" بدأت الهتافات" يسقط ديغول، تحيا الجزائر الفرنسية"[64]، و بالمدن الكبرى خاصة منها الجزائر العاصمة أقيمت المتاريس في وجه القوات الفرنسية"، التي لم يبذل أي جهد جدّي للقضاء عليها، و هو ما تركهم يحولون أسلحتهم صوب الجزائريين فراحوا يطلقون النار عليهم[65]، وصلت بهم جرأتهم التحضير لعملية ضد الجنرال ديغول بمدخل مدينة "أورليون فيل" (الشلف حاليا) اكتشف من قبل الاستخبارات العسكرية[66].

إن عنف الأقلية الأوروبية و أنصار الجزائر الفرنسية أثار مقاومة السكان الجزائريين، لذلك تحول هذا التصدي إلى فيضان جماهيري تلقائي في عدة مدن مثل وهران، العاصمة قسنطينة و عنابة [67]، تحرك مضاد و بقوة بينت من خلاله أجهزة الأمن الفرنسية ميلها في مواجهة المظاهرات إذ كانت عند الأوربيين دون حتى جرحى لكن عند الجزائريين قمعت و بشدة خلفت عدداً كبيرا من الضحايا [68]. بفعل إصطدامات الأوربيين مع الجزائريين انتظمت المسيرات و أقيمت المتاريس و تباينت الهتافات ورفعت الأعلام الجزائرية، بُهت الجيش الفرنسي لسرعة امتدادها و توسعها، فحوصرت أحياء المسلمين، ومنعت من التدفق نحو أحياء الأقلية الأوروبية لتنتهي بإطلاق النار عليهم من قبل المظليين، و حتى من المدن الأخرى و التي بها عدد كبير من الأووربيين كوهران التي قاموا فيها بمظاهرات رد عنها مئات المسلمين متدفقين نحو المدينة الأوربية صارخين بحياة بن بلة و تحيا الجزائر المسلمة، الحكم لعباس، كما شهدت قسنطينة هجومات للشبان الأوربيين الذي هتفوا بشعارات الجزائر الفرنسية و حطموا زجاج السيارات المتوقفة[69]. تدخلت جبهة التحرير الوطني بذكاء لتهتف لصالح ديغول و التحرير و الاستقلال من كل مكان في العاصمة[70].

وعليه جُنَّ جنو ن الأوربيين لأنهم لم يتعودوا على مثل هذا التحرك الجماعي ضدهم، فراح بعضهم يطلق الرصاص على الجزائريين من شرفات المنازل، و أصبح كل جزائري هدفا لهم، فاجأتهم الأحداث داخل الحي الأوروبي في عداد الموتى، حتى أنهم شعورا بالاعتزاز و الفخر لما قاموا به ضد الجزائريين فذلك فرح لقتله جزائري و آخر منبسط لأنه وخز رأس مظلته في رأس قتيل، إلى آخر مظاهر التصرفات الوحشية و القتل بسابق الإصرار[71].

لم يكتف الأوربيون بالقتل بل خربوا المقاهي و المتاجر الجزائرية و أضرموا النار فيها، رغم أنهم كانوا مسلحين إلا أنه استولى عليهم الفزع حتى أن استنجدوا بإدارة الأمن التي بعثت بفرق من الجيش الإستعماري هتف لها الأوربيون :" اقتلوهم عن آخرهم إنهم جميعا فلاقة"[72]، و ذلك ما شهدت به جريدة لوموند التي حرمت بالجزائر يومين متتاليين لنشرها ما اقترفته أياديهم، إذ وصفت الأحداث:" كانوا بين نارين، نار الأوربيين و اعتداءاتهم و نار رجال حفظ الأمن ... الأوربيون يقومون باليد و هم حاملين الأسلحة من مسدسات و عصي باحثين عن المتظاهرين المسلمين" [73]. توهم الأوروبيون أن الجزائريين سوف ينهزمون بسرعة أمام هذه الإمدادات الضخمة و هذا الحصار الخانق، سرعان ما تبينوا أنهم جادون في موقفهم، فتراجعوا تاركين الجنود لوحدهم في مهمة مواجهة الجزائريين[74].

انتهت المظاهرات بسقوط ضحايا من الجزائريين على يد مسلحين مدنيين أوروبيين من عصابة جبهة الجزائر الفرنسية و التنظيمات الأخرى [75]، إذ تشير الإحصائيات الرسمية إلى وفاة مائة و عشرون جزائري إلى جانب ضحايا مدينة وهران عنابة[76]، إلا أن إحصائيات "بيار مانوني" والتي يذكر فيها بتفصيل استشهاد تسعين جزائري و جزائرية مع وفاة ستة أوربيين و إصابة ثلاثمائة و سبعة عشر مسلما بجروح وثلاثة و خمسون من الأوروبيين في الجزائر العاصمة، أما في مدينة وهران استشهد ثمانية عشر مسلما وأصيب خمسة عشر بجروح[77].

لكن الأوربيين ظلوا يستعرضون عضلاتهم في وجه المسلمين، وفي وجه الحكومات الفرنسية المتعاقبة خاصة منذ نجاحهم في الإطاحة بالجمهورية الرابعة، إلا أن مظاهرات المسلمين كسرت شوكتهم، حيث أكدت التقارير الرسمية الفرنسية أن ضخامتها و تبنيها لشعارات جبهة التحرير الوطني أصابت المستوطنين بالرعب و الذهول[78]، كما أنها أعدت ضربة قاضية للسياسات الفرنسية و الجنرال ديغول لإذ أفشلت جميع خططه و مشاوراته كما ردت على الغلاة من الكولون و العسكريين صدى "دان بيان فو" جديدة[79] و ما كان يتصور الأوربيون و العسكريون أن تلك المظاهرات سوف تغير مجرى الحرب[80]، وبقدر ما كانت مظاهرات الجزائريين تدل على نضج الشعب الجزائري و وعيه [81]، و رغم أن الكولون تكالبوا صفاً واحداً ضد الجزائريين عندما صدع هؤلاء بما يحملون من مشاعر زاد تضامن جيش فرنسا الإستعماري في شكل عنصري يربطهم وأوربي الجزائر[82]. لم يجد الأوربيون بداً من أن ينضموا إلى جيشهم الاستعماري ليكونوا كتلة واحدة تقف في وجه الشعلة الجزائرية الزاحفة عليها من شوارع القصبة بمدينة الجزائر و وهران و عنابة و قسنطينة[83].

و سرعان ما رجع ذلك الصراع الذي عاشته الأقلية الأوروبية في ظل الحكم العسكري أيام نابليون الثالث و الجيش الفرنسي في ظل رغبتهم الانفراد بالسيادة و حتى لا يشاركهم فيها فرنسيو فرنسا، نزاع كله من أجل أن تكون له السلطة في الجزائر [84]، مشاعر عبر عنها أحد الأوروبيين لصحافي فرنسي" هنري توران" اعتمدت عليه جريدة المجاهد قوله:" إن الجيش يتخلى عنا، لقد انتهينا، و قد كان ينبغي علينا أن نفهم هذه الحقيقة في 24 جانفي 1960 إذ سجلت بعض الصحف الفرنسية أن الكثير من فرنسيي الجزائر أصبحوا يفكرون في مغادرة الجزائر و الالتحاق بفرنسا[85]، لأن الأخوة التي طالما تغنى بها الجميع بين الفرنسيين و الجزائريين أصبحت مجرد وهم و خيال [86]. بل أنذرتهم و جعلتهم يعيشون تحت

هاجس العد التنازلي للرحيل من ارض دنسوها بجرائمهم التى لن تنساها الاجيال [87] . ان جولات الجنرال ديغول بعثرت مخططات الناشطين الاوربيين بالجزائر،حتى انهم فشلوا فى دفع القوات العسكرية الإنضمام لمخططهم [88]، وهو ما عبر عنه ديغول بعد زيارته إذ يقول:"ظلت الطائفتان في هذا المجال منها بعيدة عن الأخرى أكثر من أي وقت مضى" هي حقيقة أراد أوروبيو الجزائر أن يحجبوه عنها من خلال دفعهم و ضغطهم على الجزائريين للتظاهر معهم[89].

حتى تلك القوة الثالثة التي أراد الجنرال ديغول تقوية أصبحت في موقف حرج، فأعلام جبهة التحرير الوطني التي رفعت و بأعداد كثيرة بمناطق عدّة، حتى تلك التي كان يبدو أن جهود التهدئة بها نجحت مثل مدينة وهران [90]. فالأوربيون ذهلوا أمام وقع المظاهرات فانقلب حماسهم إلى الخوف، لمسوا هزال قوتهم أمام المظاهرات الجزائرية[91]، و أمام هذا الوضع أطلق الأوروبيون عليهم النار فقتلوا العديد من الجزائريين[92].

الخاتمة:

خلاصة القول، ان مظاهرات 11 ديسمبر حملت نهاية أحلام واساطير ما كان يسمى بالجزائر الفرنسية بالنسبة لكل الجالية الأوروبية [93]، وعجلت بنهاية الوجود الإستعماري في الجزائر و هو ما تؤكده جريدة الشعب ضمن مقال لها واستناداً على أحد الصحفيين الفرنسيين آنذاك عندما وصف المظاهرات بقوله:" إن الأمر الذي فوجئ به الجميع هو أنه منذ بداية الثورة حتى شهر ديسمبر لم يبقى للجزائريين المدنيين(سكان المدن) أن أعربوا عن عواطفهم و شعورهم الوطني بمثل هذه القوة و هذه الثقة بالنفس، فقد تجاوز حماس النساء والرجال حماس الشباب في الإعراب عن تشبثهم بالاستقلال و عدائهم للاستعمار الفرنسي إنه لم يبقى لنا إلا أن نحاول الحفاظ على الأمن و الإستقرار ريثما نحزم أمتعتنا و نرحل" [94]، جعلتهم يدركون أن الجزائريين ملتحمون مع الثورة فهتكت حجب الأكاذيب التي طبختها لهم الصحافة الفرنسية...أقنعتهم أن الجزائر الفرنسية سراب خادع"[95].

كما كانت عاملا حاسما في حمل الجنرال ديغول على التخلي عن سياسته" تحقيق الجزائر جزائرية بدون جبهة التحرير"[96]، إذ أكدت له محاولاته السابقة عدم نجاحة في فصل السكان عن الثورة، بل إنها هي التي نجحت في تجنيد الجماهير ورائها بكيفية لم يسبق لها مثيل [97]. كما تبعثرت أفكاره التي جعلته أمام الأمر الواقع للدخول في مفاوضات مع جبهة التحرير الوطني [98] ضمن لقاء موران الذي توقف يوم 29 جوان 1960[99].

كما اكدت مظاهرات ديسمبر على أن الشعب الجزائري تحرك في الوقت المناسب مبرهنا على درجة كبيرة كم الوعي، مدركا لطبيعة و معادلة الصراع القائمة، و عليه فإن مظاهراته أثبتت زيف أطروحة التآخي مع رفض الشعب للقوة الثالثة [100]، و أقنعت الجنرال ديغول تخليه البحث عنها [101]. وعليه فإن المظاهرات حررته من الضغط الذي كان عليه و لمدة سنتين إذ أسير أوروبي الجزائر لا يقول كلمة إلا بعد يقرأ لها ألف حساب [102]، لكنه و بعد عودته من بجاية كآخر محطة قادته للجزائر و عند نزوله بمطار أورلي كان أكثر وضوحا مع حاشيته التي جاءت لاستقباله خاطبها قائلا:" إن ما جرى قد

اوضح الجو" [103]. و عليه أقدم على مشروع تقرير مصير ليوافق عليه الشعب الفرنسي في جانفي 1961، إجراء أدى إلى تأزم الوضع من جديد بين الجيش الفر نهي في الجزائر و باريس، فبادرت الجالية الأوربية بالجزائر إلى اتخاذ إجراءات ضرورية للشروع في حرب العصابات ضد فرنسا وجبهة التحرير الوطني[104].

الهوامش:

1. عبد الله شريط، الثورة الجزائرية في الصحافة الدولية 1956، منشروات المتحف الوطني للمجاهد، الجزء1، ص:99.
2. جريدة المجاهد، 8 ماي 1961، العدد، 95، ص:7.
3. Historia,la fin de l'Algérie française 56-62,N° spécial,424BIS,1982,P :154.
4. شارل ديغول، مذكرات الأمل، ترجمة : سموحي فوق العادة، مراجعة : أحمد عويدات، منشورات عويدات،الطبعة 1، بيروت، 1970،ص: 48.
5. عبد المجيد عمراني، جون بول سارتر و الثورة الجزائرية، مكتبة مدبولي، د.ت، ص:122.
6. DROZ BERNERD et lever evelyne,histoire de la guerre d'Algérie 54-62, paris seui ,1982,P :247.
7. Bernard Tricot,Les sentiers de la paix,Algerei 1950-1962,plan Paris,1972,P :156.
8. عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية و لغاية 1962ن دار الغرب الإسلامي، لبنان 1997،ص :443.
9. Historia,Op.cit,P :154.
10. Slimane chikh,l'Algerie en armes ou le temps des certetudes ,OPU , Alger, 1981, P :193 .
11. حسينة حماميد، المستوطنون الأوروبيون و الثورة الجزائرية 1954-1962، الطبعة 1،متيجة للطبع، الجزائر،2007،ص:190.
12. Remi kauffer, l'oas, histoire d'une organisation secrète,fayard,Paris,1986,PP :79-81.
13. عبد الله شريط، المرجع السابق، ص:104.
14. جريدة الشروق اليومي، الثلاثاء 3 جانفي 2006، العدد 1576،أوراق خاصة بقلم محمد الميلي، ص: 10.
15. Bernard Tricot,Op-cit,P:89
16. حسينة حماميد، مرجع سابق،ص:190.
17. شارل ديغول، المصدر السابق، ص:100.
18. DROZ BERNERD et lever evelyne,Op-cit,P :255.
19. Pierre canavagis,l'Algérie algeriene, ou la fin des illusions,in historie la fin de l'Algerie française 1959-1962,numéro spécial,P :P58.
20. حسينة حماميد، مرجع سابق،ص:192.
21. عبد المجيد عمراني، مرجع سابق،ص:168.
22. المرجع نفسه،ص:142.
23. شارل ديغول، المصدر السابق، ص:104.
24. Claud paillat, la grande tournant l'autodétermination,histoire N° spécial, 424, Paris, 1988 ,P .15.

25. Benyoucef benkhadda,les accords d'Evian,2éme Edition,OPU,Alger,1991,P :91.
26. شارل ديغول، مصدر سابق، ص:117.
27. Pierre laffont, l'entretien degaulle, histoire N°spécial 425 Bis,1982,P :8.
28. الأخضر بورقعة، مذكرات شاهد على إغتيال الثورة، دار الحكمة الجزائر، 1990، ص:25.
29. دحو فغرور، حرب العصابات، دراسة للمفاهيم و الممارسة، مجلة الذاكرة، العدد 6ن نوفمبر 2000، المتحف الوطني للمجاهد،ص:169.
30. محفوظ قداش، و تحررت الجزائر، ترجمة: العربي بوينون، دار الأمة، 2011،ص:234.
31. فرحات عباس،تشريح حرب،ترجمة: أحمد المنور، الجزائر، 2010،ص:393.
32. جريدة المجاهد،2-4-1959، العدد38، ص:313.
33. فرحات عباس، المصدر السابق، ص:313.
34. Pierre canavagis,Op-cit,P :58.
35. محمد عباس، ديغول و الجزائر، أحداث قضايا و شهادات، دار هومة، الجزائر، 2007، ص:237.
36. Jacques rouvière, le putsch d'Algie, Paris,France empire,1976,P :70.
37. حسينة حماميد، المرجع السابق،ص:193.
38. محمد قنطاري، مظاهرات ديسمبر 1960، أسبابها وقائعها نتائجها،مجلة المصادر، العدد 3،2000، ص:32.
39. الشروق اليومي، 4 جانفي 2006، العدد 1577،أوراق خاصة بقلم محمد الميلي،ص:16.
40. جمال خرشي، الإستعمار وسياسة الإستيعاب في الجزائر 1830-1962، ترجمة: عبد السلام عزيزي، مراجعة و إشراف : مصطفى ماضي، دار القصبة، الجزائر، 2009، ص:500.
41. محمد قنطاري، مرجع سابق،ص:31.
42. Françis attard,A alger la peur succéde à la future,in la guerre d'Algerie, tome 8,P :2591.
43. عمار قليل، ملحمة الجزائر الجديدة، الجزء الثاني، دار البعث، قسنطينة، 1991، ص:337.
44. Pierre albert lambert, un voyage mouvementé, in la guerre d'algerie,Tome 7,P :2591.
45. Paul Marie de la groce, le discours de constantine, Tome 6,P :141.
46. محمد قنطاري، المرجع السابق،ص:32.
47. علي كافي، مذكرات من المناضل السياسي إلى القائد العسكري، 1945-1962، دحلب،الجزائر، 2011، ص:237.
48. Le monde 12/12/1960 N° 4944
49. محمد قنطاري، المرجع السابق،ص:32.
50. شارل ديغول، المصدر السابق،ص:106.
51. Le Figaro,10-11/12/1960 N°5061.
52. محمد قنطاري، مرجع سابق،ص:53.
53. Le Figaro,12/12/1960 N°5062.
54. محمد قنطاري، المرجع السابق،ص:93.

55. جريدة الشروق اليومي، 4 جانفي 2006، العدد 1577،أوراق خاصة بقلم محمد الميلي،ص:16.
56. جريدة المجاهد، 19 ديسمبر1960، العدد 85، ص:8.
57. Le Figaro,10-11/12/1960 N°5061.
58. شارل ديغول، المصدر السابق، ص:106.
59. Françis attard,Op-cit,PP :2558-2560
60. Yahiaoui massouda, les événements du 11 décembre1960 dans la révolution algérienne , El Massadir,N°7,Novembre 2002,P :12
61. محفوظ قداش، المرجع السابق، ص:235.
62. الشروق اليومي، 4 جانفي 2006، العدد 1577،أوراق خاصة بقلم محمد الميلي،ص:16.
63. جريدة المجاهد، العدد 85، 19 ديسمبر1960، ص:8.
64. فرحات عباس، المصدر سابق، ص:394.
65. جريدة المجاهد، العدد 85،
66. Le monde12/12/1960,N°4944.
67. علي كافي، المصدر السابق، ص:237.
68. محمد حسين، الإستعمار الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط4، الجزائر، 1986، ص:502.
69. محفوظ قداش، مرجع سابق، ص،ص:236-238.
70. فرحات عباس، المصدر السابق، ص:395.
71. جريدة الشروق اليومي، 4 جانفي 2006، العدد 1577،أوراق خاصة بقلم محمد الميلي،ص:16.
72. المجاهد، 1960/12/18، عدد سابق.
73. جيلالي صاري، مظاهرات 11 ديسمبر 1960 و دورها في التحرير الوطني، مجلة المصادر، العدد الثاني، 1979، ص:145.
74. المجاهد، 1960/12/19، مصدر سابق.
75. Mohamed teguia, l'Algerie en guerre, Edition, OPU,Alger,P :360.
76. Jeane planchais,Après le putsch,l'Action clandistine,histoire, N° spécial,P :2
77. Pierre mannoni, Les français d'Algérie, vie, mœurs, mentalité, Paris, Edition L'harmattan,1993,P :264.
78. A.N.O.M, Aix en Provence, boite 81F/891.
79. جيلالي صاري، مرجع سابق، ص:147.
80. جريدة الشروق اليومي، 8 جانفي 2006، العدد 1580،أوراق خاصة بقلم محمد الميلي،ص:10.
81. جريدة المجاهد ، 2 جانفي 1961، العدد 86،ص : 8.
82. المصدر نفسه.
83. المصدر نفسه ، 19 ديسمبر1960،
84. المصدر نفسه ، 2 جانفي 1961،
85. المصدر نفسه 19 ديسمبر1960،

86. باتريك ايفينو، جون بلانشايس، الجزائر و اتفاقية إيفيان، ترجمة: أحمد بن محمد باكلي، دار القصبة، الجزائر،2008، ص:218.
87. عثمان الطاهر علية، الثورة الجزائرية، أمجاد بطولات، المؤسسة الوطنية للنشر و الإشهار، الجزائر، 1996، ص:179.
88. A.N.O.M, Aix en Provence, boite 81F/811.
89. شارل ديغول،المصدر السابق،ص:107.
90. A.N.O.M, Aix en Provence, boite 81F/811.
91. جريدة المجاهد 19 ديسمبر 1960،
92. الشروق اليومي،الوجع السابق.
93. جيلالي صاري، الوجع السابق، ص:162.
94. جريدة الشعب،11 ديسمبر 1995، العدد 10875.
95. جريدة المجاهد ، 1961/12/11، العدد 110، ص:6.
96. Gey pervillé, la France n'avait pas perdu la pierre,histoire,Mars 2002,P :37.
97. جريدة المجاهد، 1961/10/9، العدد 106، ص-ص:6-7.
98. A.N.O.M, Aix en Provence, boite 81F/811.
99. DROZ BERNERD et lever evelyne,Op-cit,P :293.
100. سعد دحلب، مهمة منجزة، من أجا استقلال الجزائر، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2008، ص:135.
101. Jean touchard, le gaullisme,1940-1962, Edition le seuil,Paris 1972,P :185.
102. المجاهد 2 جانفي 1961، العدد 93، ص:8.
103. الشروق اليومي، الأحد 8 جانفي 2006، العدد 1580، أوراق خاصة بقلم محمد الميلي، ص:10.
104. عمار بوحوش، العمال الجزائريون في فرنسا، دراسة تحليلية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، دون تاريخ نشر، ص:117.